نشأة وتطور الكتابة في مصر القديمة

الأستاذ الدكتور عبد الحليم نور الدين، أستاذ اللغة المصرية القديمة،
بكلية الآثار، جامعة القاهرة ومستشار مكتبة الإسكندرية

نشأة وتطور الكتابة في مصر القديمة

مر الإنسان في عصور ما قبل التاريخ بمرحلتين أساسيتين هما: جمع القوت وإنتاجه. أما المرحلة الأولى، وهي مرحلة جمع القوت، فهي المرحلة التي كان الإنسان يسعى فيها باحثاً عن قوت يومه، فكان يخرج للصيد البري أو النهري أو البحري لعله ينجح في اصطياد حيوان أو طير، كما كان يقوم باقتلاع جذور النباتات البرية وكذلك بعض أوراق الأشجار ليسد بها رمقه. وخلال هذه الفترة الزمنية الطويلة كان على الإنسان أن يعيش حياته متنقلا من مكان لآخر يبحث عن مأوى هنا وهناك في وقت لم يكن له من ملبس ليستر به عورته ويقي نفسه حرارة الصيف وبرودة الشتاء.

وإذا كنا لا نستطيع أن نحدد متى بدأت مرحلة جمع القوت فإنه من الممكن معرفة متى انتهت هذه المرحلة ليبدأ الإنسان مرحلة جديدة هامة في حياته وهي مرحلة إنتاج القوت، فقد انتهت هذه المرحلة بتلك الطفرات الهائلة التي حققها الإنسان في حياته والتي تتمثل في استئناس الحيوان، وإيقاد النار، ومعرفة الزراعة، وهي طفرات حققت للإنسان الاستقرار حيث ضمن باستئناس الحيوان مخزونًا من الطعام، وتحول من أكل للحم النيئ إلى أكل اللحم المطهوّ بعد اكتشاف النار. هذا الاكتشاف الذي جعله يحول أوانيه من طين إلى فخار، ويستمتع بالدفء في فصل الشتاء ويبدد ظلمة الليل.

وكان اكتشاف الزراعة بمثابة الاستقرار الفعلي للإنسان الذي ارتبط بفيضان النيل وبدورة زراعية وببذر البذور وبالحصاد، وأقام لنفسه مسكناً بالقرب من زراعته وصنع لنفسه ملابس من الكتان، وكون لنفسه أسرة وبدأ يتبادل المصالح مع التجمعات السكانية المجاورة، وكان هذا الاستقرار كافياً لينقل الإنسان من مرحلة جمع القوت (وهي مرحلة الإشباع المادي) إلى مرحلة الإشباع الفكري والذهني والفني وإلى التفكير في خلق الكون وفيما يجري من حوله، وبدأ يفكر في القوى الكونية المحيطة به، ولاحظ أن الشمس تشرق ثم تغرب ثم تشرق من جديد، وأن القمر يسطع ثم يختفي ثم يضيء من جديد، وأن النبات ينمو ثم يحصد ثم ينمو من جديد، وأن النيل يفيض ثم يغيض ثم يفيض من جديد. هذه الدورة للشمس والقمر والنبات والنيل هي التي أوحت له بالقطع بحياة ما بعد الموت، بمعنى أنه يحيا لفترة مؤقتة، ويموت لفترة مؤقتة، ثم يبعث من جديد لأبد الآبدين. هكذا آمن المصري بجوهر ومركز الثقل في الحضارة المصرية أي البعث والخلود وكان من حسن حظ مصر أن كان الإنسان المصري مهيئاً لكي يتعامل مع الطبيعة ويتفاعل معها لكي ينجزا لنا معاً هذه الحضارة الرائعة والتي نرى شواهدها في كل مكان على أرض مصر.

وفي ظل الاستقرار بدا الإنسان يخطو خطواته الأولى بثقة ورسوخ نحو الفن، فبدأ يشكل من مواد لينة كالطين تماثيل لكائنات في الطبيعة تشغله في حياته اليومية في زراعته وصيده ورعيه، وبدأ يسجل على الصخور بعض المناظر التي تمثل أنشطته المختلفة وتعبر عن محاولاته المستمرة لفهم العناصر التشريحية للإنسان والحيوان والطير والزواحف، ولبعض

الموجودات في الطبيعة مثل المياه، والصحراء، والجبال...إلخ، وذلك في إطار ما نعرفه بالمخربشات وهي مرحلة وسط بين النقش والرسم، حاول الإنسان من خلالها أن يعبر – في أشكال بلا نسب – عما يجرى من حوله في الكون.

وعندما تعددت أنشطته اليومية وازدادت التجمعات السكانية كان على الإنسان أن يتبنى وسيلة ثابتة للتعبير عن أفكاره ولتسجيل أحداث حياته اليومية. وليس من شك في أن الإنسان ظل لفترة طويلة يتعامل بوسائل مؤقتة للتعبير عن الفكرة، ولعل من أبرزها استخدام الإشارات المتبادلة لتحقيق التفاهم بين الأفراد، والإشارة باستخدام أعضاء جسم الإنسان أو باستخدام عوامل مساعدة قد تخدم الفكرة في لحظتها ثم تنتهي الفكرة بانتهاء استخدام الإشارة. ولابد أن الإنسان قد أدرك في وقت ما أن الإشارة لا يمكن أن تفي بكل ما يريد أن يعبر عنه، فالكثير من المعاني الجمالية والقيم والمبادئ وكذلك المعاملات بين الناس، كل هذه وغيرها كانت تحتاج لمفردات لا يمكن التعبير عنها بالإشارة، ثم إن الإنسان عندما خطا خطوات واسعة في مجال العقائد الدينية والأنشطة المدنية والعسكرية أدرك أنه لابد من تسجيل أحداث بعينها ولعل أبسطها أن إيمانه بحياة ما بعد الموت جعله يسعى للحفاظ على الجسد لكي تتعرف عليه الروح وتدب فيه، ومن بين وسائل الحفاظ على الجسد وضمان خلود الإنسان اسمه الشخصي الذي كان لابد من تسجيله على جدران مقبرته وعلى تمثاله وعلى أثاثه الجنائزي وغيره.

وقد نجح المصري بعد جهد جهيد في أن يحقق هذا الحدث الهائل – الوسيلة الثابتة للتعبير عن الفكرة – أي الكتابة التي نقلته من مرحلة عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية. أي أن الكتابة هي الحد الفاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية التي بدأتها مصر بالأسرة الأولى على اعتبار أن الكتابة هي مادة تسجيل تاريخ وحضارة الإنسان المصري القديم.

وجاء اختراع الكتابة تعبيراً عن الاستقرار الذي تحقق للإنسان المصري، الاستقرار المادي والمعنوي، وتعبيراً عن أن هذا الإنسان كان مهيئاً قبل غيره للنهوض بعبء هذه الخطوة البارزة على طريق حضارته الرائدة. ثم هي تعبير عن أن البيئة التي عاش الإنسان المصري القديم في رحابها ساعدت على تحقيق الاستقرار له، ذلك الاستقرار الذي أفرز الكثير من الإبداعات، فالمناخ المناسب المستقر إلى حد كبير، والأرض المستوية في معظم أرجاء البلاد، والنيل شريان الحياة الذي ربط البلاد من أقصاها إلى أدناها، وحقق لها كل الخير والرخاء. كل هذه العوامل وغيرها دفعت بالإنسان المصري القديم إلى استثمار كل المقومات للنهوض بالإنسان المصري القديم إلى استثمار كل المقومات للنهوض ببلده وتحقيق الأهداف التي ينشدها.

ولسنا نعرف على وجه التحديد متى حقق الإنسان المصري القديم هذا الإنجاز أي اختراع "الكتابة" وإن كنا نعرف أن الأسرة الأولى بدأت في حوالي القرن الحادي والثلاثين قبل الميلاد، وأن هذه الأسرة تمثل اللبنات الأولى في بناء الحضارة المصرية القديمة وأنها شهدت محاولات جادة للكتابة الهيروغليفية. فلابد أن محاولات الإنسان المصري للكتابة قد

بدأت قبل الأسرة الأولى بحوالي قرنين من الزمان، يشير إلى ذلك بعض شواهد الفترة المتأخرة من العصر الحجري وعصري ما قبل الأسرات وما قبيل الأسرات، حين حاول المصري – مستلهماً من الطبيعة – أن يسجل بعض العلامات التصويرية وبعض المفردات البسيطة.

وقبل أن نتحدث عن أقدم كتابات اللغة المصرية القديمة وهي الكتابة المعروفة بالهيروغليفية، فلعله من المنطقي أن نشير إلى مسمى اللغة التي احتضنت هذه الكتابة وغيرها من الكتابات الأخر التي سيرد ذكرها فيما بعد.

أشار المصريون في نصوصهم إلى لغتهم بمسميات كثيرة من بينها "لسان مصر، فم مصر، كلام مصر، كلام أهل مصر". كما عرفت أيضا باسم "كلام الإله".

وقد كتبت هذه اللغة بخطوط أربعة هي الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية والقبطية والتي سنتحدث عنها فيما بعد.

وتتسم اللغة المصرية القديمة بشخصية مميزة – هي استمرار تميز مصر أرضاً وشعباً- تمثل هذا التميز اللغوي في احتفاظها بمبادئ نحو وصرف اختلفت بها عن غيرها من لغات العالم القديم. ورغم هذا التميز ولأن مصر كانت حضاريًا وجغرافيًا عضواً في جسد الشرق الأدنى القديم، وذات صلات متفاوتة مع جزر البحر المتوسط وشمال أفريقيا، وبحكم الانفتاح الحضاري الناتج عن علاقات تجارية أو عسكرية لمصر مع جيرانها كان لابد من أن تدخل اللغة المصرية القديمة في دائرة التأثير المتبادل، ومن ثم فقد تضمنت قواعد ومفردات تشير إلى قيام علاقات قوية مع جيران مصر من أصحاب المجموعة السامية في الشمال الشرقي وأصحاب المجموعة الحامية في الغرب والجنوب الشرقي.

وليس هذا مجال البحث في أصول اللغة المصرية القديمة عما إذا كانت حامية أو سامية الأصل، فاللغة المصرية القديمة كما أسلفنا لها شخصيتها المتميزة النابعة من شخصية الإنسان المصري وتراب أرضه، ولكنها ككل لغة كان ولابد أن يحدث التقارب بينها وبين لغات أخرى للشعوب المجاورة ولا يعيب هذه اللغة أو تلك أن تأخذ من غيرها ما يمكن أن يثريها ويحقق لها التكامل طالما احتفظت بخصائصها الأصلية. ولأن اللغة المصرية القديمة عندما تذكر لابد أن تذكر معها الكتابة الهيروغليفية كأقدم كتاباتها وأطولها عمراً وأكثرها ووضوحاً وخلوداً، فهي كتابة العلامات الكاملة والمنشآت الضخمة كالمعابد والمقابر، ولذا سنبدأ الحديث بهذه الكتابة.

☥الكتابة الهيروغليفية

الكتابة هي الوسيلة الثابتة للتعبير عن الفكرة، وعندما فكر المصري في أن يسجل أحداثه كانت الطبيعة من حوله مصدر الإلهام بالنسبة له بما فيها من ظواهر طبيعية وكائنات حية، فهداه تفكيره إلى أن ينقل بعضاً مما في الطبيعة والبيئة المحيطة به ليعبر بالصورة عن المعاني التي يريد التعبير عنها، وجاءت العلامات ذات استخدام تصويري أي

معبرة عن صورتها، فإذا ما رسم إنساناً فإنه يقصد التعبير عن الإنسان، وكذلك الحال بالنسبة لأعضاء جسم الإنسان، أو الحيوان وأعضائه، وكذلك الطيور والزواحف والحشرات، ثم هناك الأشجار والنباتات والجبال والبحار والأنهار.

والمتوقع أن بعض أصحاب المبادرات والذين يجود بهم الزمان في كل مكان قد التقوا ووضعوا تصوراً قابلاً للنقاش والتطور، ولابد أنهم اتفقوا على استخدام علامات معينة لتعبر عن مضمون معين، فالبومة للتعبير عن البومة نفسها، وموجة المياه للتعبير عن المياه بوجه عام سواء من حيث المصدر أو الاستخدام، واختاروا شكلا هندسيًّا معيناً للتعبير عن البيت وشكلاً آخر دائريًّا بشارعين متقاطعين للتعبير عن المدينة، والعلامة التي تمثل القلب والقصبة الهوائية للتعبير عنهما كأجزاء من جسم الإنسان. وفي كل هذه العلامات التصويرية كان لابد من استخدام شرطة رأسية أسفل العلامة في معظم الأحيان لتؤكد أن العلامة تعبر عن نفسها وتشير إلى مضمونها، أي تصور نفسها دون أن تكون لها قيمة صوتية. ولابد أن دائرة الاتفاق على الاستخدام التصويري للعلامة قد بدأت تتسع لتشمل أكثر من مكان من أرض مصر، ولعل القارئ يتساءل من أي مكان بدأ المصري يكتب؟ هل بدأت المحاولة في مكان بعينه ثم أخذت تنتقل بالتدريج إلى أماكن أخرى؟ أم أنها انطلقت من أكثر من مكان في وقت واحد؟

الأرجح والمنطقي أن تكون البداية قد جرت في مكان بعينه، وبعد التوصل إلى بعض الأساسيات أخذت الفكرة تنتقل إلى جهات أخرى لعلها قبلت ريادة المنطقة التي بدأت فيها الكتابة أو أعملت فيها فكرها.

وإذا كانت نقطة الانطلاق قد حدثت في مكان ما، فهل يمكن من خلال ما نعرفه عن تاريخ مصر القديمة وحضارتها وعن الأدوار التي لعبتها بعض المناطق والتي تمثل ثقلاً دينيًّا أو فكريًّا، هل يمكن أن نحدد أين بدأت الكتابة؟! ربما نستطيع أن نشير إلى بعض المناطق في شمال البلاد ووسطها وجنوبها ذات الثقل الفكري على امتداد التاريخ المصري القديم أوفي فترة محددة منه، فهناك مدينة العلم والثقافة والفكر الديني "هليوبوليس" – عين شمس – المطرية والتي كانت تعرف باسم "أون" مركز عبادة الشمس ومنبع نظرية هامة من نظريات تصور المصري القديم عن خلق الكون "نظرية التاسوع" ومحط أنظار الفلاسفة ورجال العلم من بلاد اليونان. وهناك مدينة منف العظيمة أقدم العواصم المصرية (حالياً ميت رهينة – مركز البدرشين – محافظة الجيزة) مركز عبادة الإله بتاح، أحد أهم الآلهة المصرية ومصدر إحدى نظريات خلق الكون. ثم هناك في مصر الوسطى في محافظة المنيا وبالتحديد قرية الأشمونين مركز ملوي. الأشمونين كانت مركزاً لعبادة الإله جحوتي إله الحكمة والمعرفة، ومنها خرجت أيضا إحدى نظريات الخلق "نظرية الثامون" ثم هناك في صعيد مصر وفي منطقة أبيدوس (العرابة المدفونة – مركز البلينا – محافظة سوهاج) حيث المركز الرئيسي لعبادة إله الخير ورب العالم الآخر "أوزير يس"، وفي سوهاج أيضا منطقة ثني (طينة) التي يظن أنها قرية البربا (مركز جرجا – محافظة سوهاج) والتي خرج منها الملك "نعمر" وأسرته لتوحيد قطري مصر. وعلى بعد حوالي 20كم شمال إدفو نجد في شرق وغرب النيل مدينتي "نخب" و"نخن" عاصمتي الجنوب

قبل توحيد قطري مصر، ومركز عبادة الإلهة ذات الشأن الكبير في العقائد المصرية، الإلهة "نخبت". وعودة إلى شمال البلاد إلى قرية بوتو (إبطو– تل الفراعين – مركز دسوق – محافظة كفر الشيخ) عاصمة مصر قبل توحيد القطرين ومركز عبادة إحدى الإلهات البارزات في مصر القديمة وهي الإلهة "واجيت".

ثم هناك الكثير من المواقع التي شهدت حضارات ما قبل التاريخ والتي مهدت لتاريخ مصر المكتوب مثل الفيوم وحلوان والمعادي وجرزة دير تاسا والبداري ونقادة وغيرها.
في أي من هذه الأماكن أو ربما في غيرها بدأت الكتابة المصرية؟ سؤال سيظل بلا إجابة محددة إلى أن تخرج لنا أرض مصر الكثير الذي لا يزال في باطنها.

ونعود للعلامات التصويرية التي أدرك المصري بمرور الوقت أنها غير كافية للتعبير عن أفكاره ونشاطاته وتصوراته للعالمين العلوي والسفلي (عالم الأحياء وعالم الموتى)، وعليه فقد أخذ المصري يطور من استخدام العلامة ليتقلص دورها التصويري بالتدريج ويبدأ دورها الصوتي لتعطي كل علامة صوتاً واحداً أو صوتين أو ثلاثة وفي حالات قليلة أربعة.

☥ القيمة الصوتية للعلامات

بعد ما توصل المصري إلى وضع قيمة صوتية Transliteration لكل علامة كان عليه أن يصنف العلامات إلى علامات تعطي القيمة الصوتية لحرف واحد والتي عرفت تجاوزاً باسم "الأبجدية" وأخرى تعطي القيمة الصوتية لحرفين، وثالثة تعطي القيمة الصوتية لثلاثة حروف وحالات ليست بالكثيرة لأربعة حروف.
ونستطيع أن نتصور مدى الصعاب التي واجهت مجموعة من الرواد المصريين القدماء الذين تصدوا لإنجاز هذا العمل الرائع من حيث التصنيف وتحديد القيمة الصوتية، ومن حيث إمكانية نشر هذا الإنجاز على امتداد الأراضي المصرية كلها لتوحيد وسيلة التفاهم نطقاً وكتابةً، ثم من حيث عدد العلامات التي استغرقت عملية اختيارها وقتاً طويلاً وتطلب جهداً كبيراً حتى يتمكن المصري من تحقيق أفضل صورة ممكنة للتكامل اللغوي والكتابي وليضمن أن ما تم اختياره من علامات سوف يفي بكل متطلباته في حياته الدنيوية و حياته الأخروية. وليس من شك في أن تعدد القيمة الصوتية للعلامات قد أدى إلى أن تكون حصيلة هذه العلامات بالمئات وهو أمر يمثل صعوبة بالغة للراغبين في تعلم اللغة المصرية القديمة إذا ما قورنت بلغات قديمة وحديثة تعتمد في بناء كتابتها على مجموعة محددة من الأحرف التي تعرف بالأبجدية.

ومن العلامات ذات الحرف الواحد على سبيل المثال "طائر العقاب"، الذي يقابل حرف الألف، ومن العلامات ذات القيمة الصوتية لحرفين تلك العلامة التي ترمز إلى البيت (pr)، ومن العلامات ذات الأصوات الثلاثة تلك العلامة التي تصور القلب والقصبة الهوائية (nfr) .

وقبل أن نتحدث عن اللغة المصرية القديمة من حيث أنواع الخطوط التي كتبت بها والمراحل اللغوية التي مرت بها واتجاهات الكتابة وغيرها نود أن نلقي الضوء على قصة فك رموز اللغة المصرية القديمة.

☥ حجر رشيد واللغة المصرية القديمة

إن الدارس للحضارة المصرية لابد أن يلم بمفتاح فك رموز اللغة المصرية القديمة من خلال حجر رشيد. والحديث عن هذا الأثر الهام يتطلب منا أن نلم بأربعة عناصر هي الحجر والمكان والزمان والإنسان.

أما الحجر فهو من البازلت الأسود، وأما المكان فهو رشيد إحدى مدن محافظة البحيرة، وأما الزمان فهو196ق.م، 1799م. وأما التاريخ الأول فهو تاريخ تسجيل النص على الحجر في عهد الملك بطليموس الخامس، وأما التاريخ الثاني فهو عام الكشف عن هذا الحجر من قبل جنود الحملة الفرنسية أثناء قيامهم بحفر خندق حول قلعة سان جوليان بالقرب من رشيد، وأما الإنسان فهو العالم الفرنسي الشاب شامبليون.

من حسن حظ الحضارة المصرية أن كشف عن حجر رشيد عام 1799م، ذلك الحجر الذي ضم مفاتيح اللغة المصرية القديمة والذي لولاه لظلت الحضارة المصرية غامضة لا ندري من أمرها شيئاً لأننا لا نستطيع أن نقرأ الكتابات التي دونها المصريون القدماء على آثارهم. فقد حصل الشاب الفرنسي شامبليون، كما حصل غيره من الباحثين، على نسخة من الحجر وعكف على دراسته مبدياً اهتماماً شديداً بالخط الهيروغليفي ومعتمداً على خبرته الطويلة في اللغة اليونانية القديمة، وفي اللغات القديمة بوجه عام.

حجر رشيد المحفوظ حالياً في المتحف البريطاني من البازلت الأسود غير منتظم الشكل، ارتفاعه 113سم وعرضه 75سم وسمكه 27.5سم وقد فقدت أجزاء منه في أعلاه وأسفله. ويتضمن الحجر من بين ما يتضمن مرسوماً صدر حوالي عام 196ق.م من قبل الكهنة المجتمعين في مدينة منف (ميت رهينة – مركز البدر شين – محافظة الجيزة) يشكرون فيه الملك بطليموس الخامس لقيامه بوقف الأوقاف على المعابد وإعفاء الكهنة من بعض الالتزامات.

وقد سجل هذا المرسوم بخطوط ثلاثة هي حسب ترتيب كتابتها من أعلى إلى أسفل: الهيروغليفية، والديموطيقية واليونانية، وقد فقد الجزء الأكبر من الخط الهيروغليفي وجزء بسيط من النص اليوناني. لقد أراد الكهنة أن يسجلوا هذا العرفان بالفضل للملك البطلمي بالخط الرسمي وهو الخط الهيروغليفي، وخط الحياة اليومية السائد في هذه الفترة وهو الخط الديموطيقي، ثم بالخط اليوناني وهو الخط الذي تكتب به لغة البطالمة الذين كانوا يحتلون مصر. وكان المكتشفون للحجر قد اقترحوا أن الحجر يتضمن نصًّا واحداً بخطوط ثلاثة مختلفة، واتضح فيما بعد أن اقتراحهم كان صائباً وبعد نقل الحجر إلى القاهرة أمر نابليون بإعداد عدة نسخ منه لتكون في متناول المهتمين في أوروبا بوجه عام وفي فرنسا بوجه

خاص بالحضارة المصرية. وكان الحجر قد وصل إلى بريطانيا عام 1802بمقتضى اتفاقية أبرمت بين إنجلترا وفرنسا تسلمت إنجلترا بمقتضاها الحجر وآثارًا أخرى. وبدأ الباحثون بترجمة النص اليوناني، وأبدى الباحثان سلفستر دي ساسي وأكربلاد اهتمامًا خاصًّا بالخط الديموطيقي.

☥ وجاءت أولى الخطوات الهامة في مجال الخط الهيروغليفي على يد العلم الإنجليزي توماس يونج الذي حصل على نسخة من حجر رشيد عام 1814م وافترض أن الخراطيش تحتوي على أسماء ملكية واعتمد على نصوص أخرى مشابهة كالمسلة التي عثر عليها في فيلة عام 1815م والتي تضمنت نصًّا باليونانية وآخر بالهيروغليفية.

ورغم كل الجهود السابقة في فك رموز حجر رشيد إلا أن الفضل الأكبر يرجع للعالم الفرنسي "جان فرانسوا شامبليون" (1790-1832).

كان على شامبليون أن تواجهه مجموعة من الافتراضات أولها: هل الخطوط الثلاثة (الهيروغليفية – الديموطيقية – اليونانية) تمثل ثلاثة نصوص مختلفة من حيث المضمون أم أنها تمثل موضوعاً واحداً ولكنه كتب بالخط الرسمي (الهيروغليفي)، وخط الحياة اليومية السائد في هذه الفترة (الديموطيقي) ثم بلغة اليونانيين الذين كانوا يحتلون مصر.

☥ وثانيها: يتعلق ببنية اللغة المصرية، هل تقوم الكتابة على أبجدية أي مجموعة من الحروف كاللغات الحديثة مثلاً؟ أم أنها كتبت بعلامات تراوحت قيمتها الصوتية بين حرف أو حرفين أو ثلاثة أو ربما أكثر.

☥ وثالثها: هل عرفت هذه الكتابة حروف الحركة؟ وهل العلامات تصويرية أم صوتية؟ وما هي الأدوات التي استخدمها المصري لتحديد معنى المفردات؟ وهل استخدمت المخصصات والعلامات التفسيرية ؟..إلخ.

لابد أن هذه الافتراضات والتساؤلات وغيرها كانت تدور في ذهن شامبليون وهو يتعامل مع الحجر، ولابد أنه قد استرعى انتباهه أن هناك أكثر من خط للغة المصرية القديمة، فضلاً عن تساؤلات منها. هل هناك من علاقة خطية بين الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية؟ وهل هناك من علاقة لغوية في مجال القواعد والصرف..إلخ. ثم هذه العلامات الأسطوانية في النص الهيروغليفي والتي تحيط ببعض العلامات الهيروغليفية – والتي عرفناها فيما بعد باسم الخرطوش – ماذا تعني؟

لقد قرأ شامبليون النص اليوناني وفهم مضمونه وقرأ اسم الملك بطليموس، والواضح أنه سلك منهج الاعتماد على أسماء الأعلام غير القابلة كثيرا للتغير، وتحرك من فرضية أن هذا المرسوم الذي صدر في عهد الملك بطليموس الخامس عام 196ق.م. لابد وأنه قد كتب إلى جانب اليونانية بخطين من خطوط اللغة الوطنية، ولابد أن اسم بطليموس باليونانية

سوف يقابل في الخطين الهيروغليفي والديموطيقي، وفي ضوء خبرة شامبليون في الخطوط القديمة ودراسته للقبطية على اعتبار – ما اتضح له فيما بعد – أنها المرحلة الأخيرة من مراحل اللغة المصرية القديمة، وفي ظل إدراكه بأن الحروف الساكنة لأسماء الأعلام لا تتغير مهما تعددت اللغات التي كتبت بها، ففي العربية نجد أن اسماً مثل مجدي لا يمكن للحروف الثلاثة الأولى أن تسقط، وكذلك حسن، وإن خففت بعض الحروف أو انقلبت أو أبدلت، إلا أن الصعوبة سوف تتمثل في حروف الحركة التي تحدد نطق السواكن بالفتحة أو بالضمة أو بالكسرة. ولخلو اللغة المصرية القديمة من حروف الحركة يجيء الاختلاف في نطق السواكن، إلا أن القبطية التي ظهرت فيها حروف الحركة حسمت الأمر إلى حد كبير.

تضمن حجر رشيد "خرطوشاً" واحداً تكرر ست مرات ضم اسم الملك بطليموس وهو الاسم الذي ورد على مسلة "فيلة" بالإضافة إلى اسم كليوباترا، سجل شامبليون العلامات الواردة في خرطوش بطليموس ورقمها وفعل نفس الشيء بالنسبة لخرطوش كليوباترا الوارد على مسلة فيلة نظراً لاشتراك الاسمين في القيمة الصوتية لبعض العلامات كالباء والتاء واللام.

وسجل نفس الاسمين باليونانية ورقم كل حرف منهما، وقابل العلامة الأولى من اسم بطليموس بالهيروغليفية وما يقابلها في اسمه باليونانية في إطار المنهج الذي أشرت إليه من قبل، والذي مؤداه أن الثوابت في أسماء الأعلام لا تتغير، وأمكن له أن يتعرف على القيمة الصوتية لبعض العلامات الهيروغليفية اعتماداً على قيمتها الصوتية في اليونانية. وبمزيد من الدراسات المقارنة أمكن "شامبليون" أن يتعرف على القيمة الصوتية لكثير من العلامات، وفي عام 1822 أعلن شامبليون على العالم أنه تمكن من فك رموز اللغة المصرية القديمة، وأن بنية الكلمة في اللغة المصرية لا تقوم على أبجدية وإنما تقوم على علامات تعطي القيمة الصوتية لحرف واحد وأخرى لاثنين وثالثة لثلاثة، وأكد استخدام المخصصات في نهاية المفردات لتحديد معنى الكلمة.

وهكذا وضع "شامبليون" اللبنات الأولى في صرح اللغة المصرية وجاء من بعده المئات من الباحثين الذين أسهموا في استكمال بناء هذا الصرح الشامخ. وبمعرفة اللغة المصرية القديمة بدأ الغموض ينجلي عن الحضارة المصرية وأخذ علم المصريات يشق طريقه بقوة بين العلوم الأخرى.

☥ خطوط اللغة المصرية القديمة

كتبت اللغة المصرية القديمة بخطوط أربعة هي: الهيروغليفية، والهيراطيقية، والديموطيقية، والقبطية، وهي خطوط لم تظهر كلها في وقت واحد وإنما جاءت في إطار تتابع زمني يعبر عن الامتداد الزمني الطويل الذي عاشته اللغة المصرية القديمة ويعبر في نفس الوقت عن النضج الفكري للإنسان المصري القديم والذي أدرك أن متطلبات الحياة قد تتطلب بين الحين والآخر أن تكون بينها وبين الأداة المعبرة عن اللغة، وهي الكتابة، تناسق ولأن الخط الهيروغليفي – خط العلامات الكاملة – هو أقدم الخطوط المصرية وأطولها

عمراً وأكثرها وضوحاً وجمالاً، فقد لجأ المصري في بعض المراحل الزمنية إلى تبسيطه وتمثل ذلك في الخط الهيراطيقي، ثم لجأ إلى تبسيط آخر في مرحلة تالية، وتمثل ذلك في الخط الديموطيقى، الأمر الذي يعني أن هناك علاقة خطية واضحة بين الخطوط الثلاثة. أما الخط الرابع من خطوط اللغة المصرية القديمة وهو الخط القبطي فقد كتب بالأبجدية اليونانية مضافاً إليها سبع علامات من الكتابة المصرية القديمة في شكلها الديموطيقي لم يتوفر نطقها في العلامات اليونانية والتي سيرد ذكرها فيما بعد.

ولعله من المناسب أن نصحح خطئاً شائعاً فيما يتعلق بمسمى اللغة المصرية القديمة، فالشائع أن يشار إليها باللغة الهيروغليفية، فالهيروغليفية خط وليست لغة، ويمكن مقارنة ذلك باللغة العربية، فهي لغة واحدة كتبت بعدة خطوط عدة، منها النسخ والرقعة والثلث والكوفي والديواني..إلخ. ولأنه لا يمكن أن نقول اللغة النسخ أو اللغة الكوفي، وعليه فإنه لا يمكن أن نشير إلى خطوط اللغة المصرية القديمة على أنها لغات، فهي لغة مصرية واحدة عبر عنها المصري كتابة بخطوط أربعة.

☥ الخط الهيروغليفي: Hieroglyphic

اشتقت كلمة "هيروغليفي" من الكلمتين اليونانيتين "هيروس" Hieros و"جلوفوس" Glophos وتعنيان "الكتابة المقدسة" إشارة إلى أنها كانت تكتب على جدران الأماكن المقدسة كالمعابد والمقابر و"الكتابة المنقوشة" لأنها كانت تنفذ بأسلوب النقش البارز أو الغائر على جدران الآثار الثابتة (المباني) وعلى الآثار المنقولة (التماثيل واللوحات..إلخ).

☥ الخط الهيراطيقي: Hieratic

اشتقت كلمة "هيراطيقي" من الكلمة اليونانية "هيراتيكوس" Hieratikos وتعني كهنوتي إشارة إلى أن الكهنة كانوا أكثر الناس استخداما لهذا الخط حيث إن نسبة كبيرة من النصوص الهيراطيقية وخاصة في العصور المتأخرة هي نصوص دينية، وكتب معظمها بواسطة الكهنة. والخط الهيراطيقي هو تبسيط للخط الهيروغليفي أو بمعنى آخر اختصار له، ولعل المصري القديم قد توصل إلى هذه الخطوط الهامة في مجال فن الخط لأسباب كثيرة منها أن الخط الهيروغليفي وهو خط العلامات الكاملة لا يتناسب مع طبيعة النصوص الدنيوية والدينية التي ازدادت بازدياد حركة الحياة والتي تطلبت خطًا سريعاً، كما تطلبت مواد كتابة لا يصلح معها إلا الخط السريع مثل البردي والأوستراكا (الشقافة) وذلك على عكس الخط الهيروغليفي – خط التفاصيل – الذي يتناسب أكثر مع المنشآت الضخمة حيث كان ينقش بالأزاميل، وأما الخط الهيراطيقي فكان يكتب بقلم البوص والحبر.

الخط الديموطيقي: Demotic

اشتق مسمى هذا الخط من الكلمة اليونانية "ديموس" Demos والنسبة منها "ديموتيكوس" أي "شعبي"، ولا يعني هذا المسمى الربط بين هذا الخط وبين الطبقات الشعبية في مصر، وإنما هو خط المعاملات اليومية ويمكن أن يقارن بخط الرقعة بالنسبة للغة العربية.

ويمثل الخط الديموطيقي الذي ظهر منذ القرن الثامن قبل الميلاد واستمر حتى القرن الخامس الميلادي- المرحلة الخطية الثالثة بعد الهيروغليفي والهيراطيقي، وجاء ظهور هذا الخط نتيجة لتعدد الأنشطة وكثرة المعاملات وخصوصاً الإدارية منها والتي تحتاج لسرعة في الإنجاز. وقد كتب هذا الخط على مادتين رئيسيتين وهما البردي والأوستراكا (الشقافة).

الخط القبطي: Coptic

هو المرحلة الأخيرة من اللغة المصرية القديمة، وكلمة "قبطي" المشتقة من اليونانية أيجوبتي وتعني "مصري" إشارة إلى المواطن الذي عاش على أرض مصر وإلى الكتابة التي عبرت عن لغته في هذه المرحلة. ولأن القبطية هي الصدى الأخير للغة المصرية القديمة فهي تمثل أهمية لغوية خاصة من حيث استخدام حروف الحركة لأول مرة في خط من خطوط اللغة المصرية، الأمر الذي ساعد إلى حد كبير في التوصل إلى أقرب نطق صحيح للغة المصرية القديمة.

وبحثاً عن الأسباب التي أدت إلى أن يكتب المصري هذه المرحلة الأخيرة من مراحل اللغة المصرية بحروف يونانية، فإنه يمكن القول بأن المصري كان قد اضطر لأسباب عملية تتمثل في وجود اليونانيين الغزاة لأن يبحث عن خط يسهل له وسيلة التفاهم معهم، فاختار الأبجدية اليونانية لكي تعبر عن أصوات اللغة المصرية وأضاف إليها سبع علامات مأخوذة من الديموطيقية وليس لها ما يقابلها من الناحية الصوتية في اللغة اليونانية وهي تعدد خطوط اللغة المصرية القديمة، وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى أكاد أتصور أن القارئ في اللغة المصرية القديمة سوف يتساءل لماذا كل هذه الخطوط للغة واحدة وكيف كانت تتم عملية الانتقال من خط لآخر؟ يمكن القول – في هذا الصدد – بأن الفترة الزمنية الطويلة التي عاشتها اللغة المصرية القديمة أدت إلى ظهور مراحل لغوية سوف نتحدث عنها فيما بعد، كما أدت أيضاً إلى ظهور مراحل خطية تتناسب مع ظروف العصر ومع متطلبات المراحل اللغوية في بعض الأحيان. فالخط الهيروغليفي هو الصورة الكاملة للعلامة وهو الخط الأكثر وضوحاً والذي يخرج في إطار تحكمه قواعد خطية. هذا الخط الذي كان يستخدم أكثر ما يستخدم على الأحجار التي تطلبت خبراء في الخط المنقوش وفي استخدام الآلات الحادة كالأزاميل، ولنا أن نتصور ماذا يمكن أن يحدث في حالة حدوث خطأ ولابد أنه في أغلب الأحوال كان الحجر يستبدل بحجر آخر ليبدأ الكاتب من جديد ويضيع الوقت والجهد والمال، وفي كل الأحوال كان يمكن إصلاح الخطأ ربما بتغطيته بطبقة جصية ثم

يكتب فوقها من جديد، وقد تسقط هذه الطبقة بعد فترة من الزمن. إلى جانب ذلك فلنا أن نتصور صعوبة نقل الأحجار المدونة عليها النصوص من مكان لآخر، فالدابة مثلاً لا يمكن أن تحمل إلا عدداً محدوداً جداً من الحجار المنقوش عليها.

ومن هنا أدرك المصري أنه لابد من البحث عن مادة أخرى أكثر سهولة للكتابة عليها وعن خط أبسط من الخط الهيروغليفي، ولذا ظهر الخط الهيراطيقي الذي كان من نتائج جلسات نقاش طويلة بين المتعلمين من أبناء مصر والذين تصدوا لهذا الأمر، أمر العلامات الهيروغليفية، ولابد أنهم اتفقوا على ضوابط للتبسيط، فمثلاً حتى لا تفقد العلامة (n) مدلولها الشكلي في اللغة المصرية القديمة لابد أنه كانت هناك محاولات كثيرة تتعلق بتخفيض عدد الوحدات المكونة للعلامة (n) التي تمثل موجة مياه لتكون ثلاثاً أو أربعاً بدلاً من ست، أو تبدأ العلامة أو تنتهي بما يشير إلى الموجة مع إلغاء الوحدات الوسطى. ولعلهم استقروا في النهاية على أن تأتي الموجة في خط واحد مسطح يقلل من حركة العلامة ومن الجهد والوقت، وهكذا أصبحت العلامة تكتب هكذا مع مراعاة وجود بقايا الحبر في نهاية العلامة. ولم يكن الجهد كله في الاتفاق على تبسيط العلامة، وإنما كان هناك جهد آخر لا يقل أهمية، وأقصد كيفية توصيل هذا التبسيط إلى كل مكان على أرض مصر وإلا لكتبت كل مجموعة من البشر بطريقتها وانعدم أمر شيوع شكل الخط، ولابد أن هذا الأمر قد استغرق وقتاً طويلاً.

ورغم أن المصريين القدماء في كل مكان على أرض مصر قد التزموا بأساسيات التبسيط إلا أن هناك بعض العوامل التي فرضت بصماتها على هذه الأساسيات وهي الزمان والمكان ويد الإنسان وأداة الكتابة ومادة الكتابة. ولنا أن نتصور أن وثيقة كتبت في منف في القرن 20ق.م. مثلاً لابد أن يختلف خطها في بعض الخصائص غير الأساسية عن وثيقة كتبت في طيبة في القرن 15ق.م. ناهيك عن مهارة الكاتب من عدمه ونوع أداة ومادة الكتابة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو متى بدأ المصري مرحلة تبسيط الخط؟ أو بمعنى آخر متى توصل إلى الخط الهيراطيقي؟ لابد أن هذا الأمر قد حدث بعد استقرار الخط الهيروغليفي في المرحلة المبكرة من تاريخ مصر المكتوب لأن الخط الهيروغليفي هو الأصل الذي تم تبسيطه. وتشير الدراسات الخطية إلى ظهور العلامات المبسطة منذ الأسرة الأولى، وإن لم نعثر على نص هيراطيقي مكتوب على ورق البردي قبل الأسرة الرابعة حيث عثر على قطع صغيرة من البردي مسجل عليها نص بالخط الهيراطيقي في الجبلين علاوة على ما عثر عليه في المعبد الجنائزي للملك "ساحورع" في أبي صير جنوب الجيزة (بعض هذه القطع محفوظة في المتحف المصري والأخرى في متاحف أجنبية).

ومن حسن حظ مصر أن توصل الإنسان المصري القديم إلى اختراع هائل ترك بصمات واضحة ليس فقط على الحضارة المصرية ولكن أيضا على بعض حضارات العالم القديم، وهو البردي كمادة أساسية بالنسبة للخط الهيراطيقي وغيره من الخطوط، ولابد أن المصري قد توصل إلى هذا الاختراع منذ عصر الأسرة الأولى على أقل تقدير، حيث عثر

على بعض قطع صغيرة من ورق البردي خالية من الكتابة في مقبرة "حم كا" في سقارة (عاش في عهد الملك "دن" أحد ملوك الأسرة الأولى) وهي محفوظة في المتحف المصري ضمن مقتنيات هذا الشخص. وهكذا نجح المصري في تحقيق إنجازين هامين هما تبسيط الكتابة واختراع مادة صالحة لهذه الكتابة المبسطة، سهلة الاستعمال، وخفيفة الوزن، توفر الجهد والوقت وهي البردي وبمرور الوقت وللأسباب التي ذكرناها آنفا ظهرت مع بداية الأسرة السادسة والعشرين (664-525 ق.م) مرحلة خطية ثالثة تمثلت في الخط الديموطيقي الذي هو أكثر اختصاراً من الخط الهيراطيقي وتخلى عن الكثير من الضوابط الخطية وأصبح أقل وضوحاً وأكثر تشابكاً من الخط الهيراطيقي ومن هنا تبدو صعوبة الكتابة الديموطيقية وبالتالي قلة عدد المتخصصين فيها. وقد ازدهر هذا الخط في العصرين البطلمي والروماني وكتب أكثر ما كتب على البردي والأوستراكا. وإذا كانت النصوص الهيراطيقية هي نصوص دينية في معظمها، فإن النصوص الديموطيقية هي أكثر النصوص إبرازاً للحياة الاجتماعية والاقتصادية للشعب المصري.

ثم تظهر القبطية مع وجود البطالمة في مصر ولأنها كتبت بحروف يونانية فليس هناك من علاقة خطية بينها وبين الخطوط السابقة ولكنها تمثل على أية حال استمراراً لغويًّا ونحويًّا وصوتيًّا، وقد سجل المصريون بها الكثير من النصوص التي ألقت الضوء على حضارة مصر القديمة في المرحلة المتأخرة من تاريخها.

☥ عصور اللغة المصرية القديمة

ينقسم التاريخ المصري القديم إلى ثلاثين أسرة وهو تقسيم وضعه المؤرخ المصري القديم "مانيتون" الذي كتب تاريخ مصر باليونانية بتكليف من الملك البطلمي "بطليموس الثاني" حوالي عام 280ق.م، ووضع المؤرخون المحدثون هذه الأسرات في إطار عصور تاريخية كعصور الدولة القديمة والوسطى والحديثة...إلخ.

وإلى جانب العصور التاريخية، هناك فيما يتعلق باللغة المصرية القديمة عصور لغوية، فقد كان من نتائج هذا الامتداد الزمني الطويل للغة المصرية القديمة حدوث تغييرات في النحو والصرف وقواعد الهجاء وفي المخصصات وفي القيم الصوتية، ومن خلال الدراسات التي قام بها المتخصصون في اللغة المصرية القديمة أمكن تقسيم اللغة إلى عصور يتميز كل عصر منها بخصائص لغوية معينة وهذه العصور هي:

☥ اللغة في العصر القديم: Old Egyptian

وهي مرحلة وضع اللبنات الأولى في بناء اللغة المصرية وبدأت منذ الأسرة الأولى واستمرت حتى منتصف الأسرة الثامنة، وتقابل هذه المرحلة من الناحية التاريخية العصر العتيق (الأسرتين الأولى والثانية) وعصر الدولة القديمة والأسرتين السابعة والثامنة من عصر الانتقال الأول. وتبدو نصوص هذه الفترة اللغوية واضحة في آثار الدولة القديمة وفي نصوص الأهرام.

اللغة في العصر الوسيط: Middle Egyptian

ظهرت خصائص هذه المرحلة اللغوية في الفترة من منتصف الأسرة الثامنة واستمرت حتى منتصف الأسرة الثامنة عشرة، وتمثل هذه المرحلة مرحلة النضج الكامل بالنسبة للغة المصرية القديمة. وقد غطت تاريخيا بعض الأسرات من عصر الانتقال الأول وعصر الدولة الوسطى وعصر الانتقال الثاني وبداية الدولة الحديثة.

اللغة في العصر المتأخر (الحديث): Late Egyptian, New Egyptian

تبدو هذه المرحلة اللغوية واضحة في نصوص الأسرات منذ النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة وحتى الأسرة الخامسة والعشرين أي تشمل تاريخيًّا الدولة الحديثة والعصر المتأخر.

مرحلة الديموطيقي: Demotic

وهي مرحلة بدأت منذ القرن الثامن قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الخامس الميلادي، وهي مرحلة لغوية وإن كتبت بخط مختلف وهو الخط الديموطيقي.

مرحلة القبطية: Coptic

وهي مرحلة لغوية بدأت منذ القرن الثالث الميلادي تقريباً وانتهت رسميًّا وليس فعلياً بدخول الإسلام مصر عام 641م حيث بدأت تحل محلها بالتدريج اللغة العربية وإن استمرا معاً لفترة طويلة.

اتجاه الكتابة

كتبت اللغة المصرية القديمة في خطها الهيروغليفي أفقيًّا ورأسيًّا من اليمين إلى اليسار فيما عدا الحالات التي تحتم تغيير اتجاه الكتابة لتتواءم مع اتجاه منظر معين أو نص معين على عنصر معماري ذي طبيعة خاصة، كما أن التنسيق والشكل الجمالي تطلب في بعض الأحيان أن تكتب بعض النصوص من اليسار إلى اليمين. وأما الهيراطيقية والديموطيقية فكانت تكتب دائما من اليمين إلى اليسار. ويمكن تحديد اتجاه النص بالنسبة للكتابة الهيروغليفية حسب اتجاه العلامات ذات الوجه والظهر مثل الإنسان والحيوانات والطيور والزواحف. فإذا كانت العلامة متجهة نحو اليسار هكذا وأما عن تطور الكتابة في مصر وهو التطور الذي يتضح من خلال ظهور خطوط أربعة للغة المصرية القديمة ذكرت من

قبل فإنه يمكن حصر التطور من خط إلى آخر وبالتالي العلاقة بين خطوط هذه اللغة، يمكن حصره في إطار خطوط ثلاثة هي الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية. نظراً لوجود علاقة خطية واضحة في معظم الحالات وهي العلاقة التي لا وجود لها بالنسبة للخط الرابع وهو الخط القبطي الذي كتب بحروف يونانية.

ولقد فرضت عدة عوامل حدوث تطور لخطوط اللغة المصرية القديمة من بينها طبيعة مادة الكتابة وأداة الكتابة والموضوع وتعدد الأنشطة البشرية وخصوصاً الاقتصادية والإدارية منها. فالكتابة على الحجر والمنشآت الحجرية بوجه عام تتطلب أن تكتب العلامات بصورتها الكاملة وأن تنقش نقشا غائرا أو بارزاً. أما عن الكتابة على ورق البردي وكسرات الفخار والحجارة والآثار الصخرية بوجه عام. فإنها تتطلب خطًّا هيروغليفيًّا مبسطاً تطور فيما بعد إلى خط أكثر تبسيطاً يعرف بالخط الهيراطيقي وقد اضطر المصري إلى تبسيط الخط الهيروغليفي تمشياً مع طبيعة مادة الكتابة (ورق البردي) ومع تزايد الأنشطة اليومية التي تطلبت خطًّا أسرع لا يتطلب مساحة كبيرة ولا جهدًا كبيرًا ولا مقابًلا ماديًّا مرتفعًا. ونظراً لقربه في بداياته الأولى من الخط الهيروغليفي المختصر فقد سمي باسم (الخط الهيراطيقي غير التقليدي) وقد راعى المصري قواعد وضوابط معينة عند التبسيط محاولاً ألا يخل بالعناصر الأساسية المكونة للعلامة ولأن الخط الهيراطيقي هو خط بلا ضوابط – كالفارق بين الخطين النسخ والرقعة في اللغة العربية (الأول يكتب بضوابط والثاني يخلو منها) فإننا لابد أن نضع في الاعتبار الاختلاف الواضح في شكل العلامة الواحدة فعلامة (البومة) كتبت بالهيراطيقية بصور مختلفة، ويجيء هذا الاختلاف ناتجاً عن عوامل كثيرة منها مادة وأداة الكتابة ومهارة الكاتب من عدمه وعوامل الزمان والمكان وطبيعة الموضوع أحياناً، وقد نجد صعوبة في بعض الحالات في تتبع التطور أو التبسيط الذي جرى للعلامة من الخط الهيروغليفي إلى الخط الهيراطيقي ومرجع ذلك للأسباب التي ذكرتها والتي تتحرك كما قلت بلا ضوابط.

وقد لا نستطيع أن نتفهم في بعض الأحيان لماذا لجأ المصري عند تبسيط بعض الطيور إلى التغاضي عن الرأس وهي جزء مميز للطائر، كما لا نفهم في بعض الأحيان لماذا لم يحافظ عند التبسيط على نسب العلامة كما هي في الهيروغليفية أي النسبة بين مكونات الجسم. وفي بعض الحالات قد لا نستطيع تتبع التطور أو التبسيط لتبدو العلامة الهيراطيقية على غير صلة بالعلامة الهيروغليفية التي يفترض أنها بسطت عنها. ويمكن القول بوجه عام أن معظم العلامات الهيراطيقية يمكن تتبع تطورها من الهيروغليفية وأن أقلها قد نجد صعوبة في ذلك لأسباب مرتبطة فيما نعتقد بمهارة الكاتب وحالته الجسدية والنفسية عند كتابة النص ومدى اهتمامه بقلمه أو فرشاه ومادة الكتابة. وإذا كان أقدم نص هيراطيقي عثر عليه في مصر يرجع لعصر الأسرة الرابعة (2597-2471 ق.م) علاوة على نص من عهد الملك "ساحورع" حيث عثر في معبده الجنائزي على مجموعة من قطع البردي عليها كتابه هيراطيقية موزعة على متحف القاهرة وبعض المتاحف الأجنبية. إلا أن ذلك لا يعني أن الخط الهيراطيقي لم يلازم الخط الهيروغليفي منذ نشأته، لكننا لم نملك الدليل على ذلك حتى الآن. ومع نهاية الأسرة الخامسة والعشرين (656ق.م) وبداية الأسرة 26 ظهر خط آخر بدا أكثر تبسيطا من الخط الهيراطيقي وهو الخط الديموطيقي وظل يستخدم في مصر

حتى نهاية العصر الروماني وهو خط في بدايته قريب الشبه بالخط الهيراطيقي ولهذا سمي في مراحله المبكرة بالهيراطيقي غير التقليدي ثم أخذ يتبلور ويتخذ شكله المستقل كخط ديموطيقي مع بداية العصر البطلمي في القرن الرابع قبل الميلاد وطوال هذا العصر والعصر الروماني. والدارس للخط الديموطيقي قد يتصور لأول وهلة أن هذا الخط يمثل مرحلة التطور الثانية بعد الخط الهيراطيقي، وقد يتصور كذلك أنه يمثل مزيداً من التبسيط للخط الهيراطيقي يتناسب مع تنوع الأنشطة الدنيوية والدينية وازديادها قياسا بالعصور السابقة.

وقد يبدو هذا الأمر منطقي إلى حد كبير ولكن الدراسة المتأنية لم تؤكد هذا التصور بشكل مطلق، وقد نخرج بمجموعة من التساؤلات وهي:
هل الخط الديموطيقي يمثل تبسيطاً لخط جرى تبسيطه عن الخط المبسط من الخط الهيروغليفي وهو الخط الهيراطيقي أم أنه والخط الهيراطيقي قد جرى تبسيطهما مباشرة عن الخط الهيروغليفي وفي حالات أخرى عن الخط الهيراطيقي، أم أنه يمثل خطًا له خصائصه التي يختلف بها عن خصائص الخطين السابقين الهيروغليفي والهيراطيقي. ومن حيث الشكل فإن الخط الديموطيقي يبدو أكثر تبسيطاً عن الخط الهيراطيقي ووصل إلى درجة الاختزال في بعض الأحيان متبنياً التخلي عن المزيد من مكونات العلامة التي احتفظ بها الخط الهيراطيقي، الأمر الذي يزيد من صعوبة قراءة الخط الديموطيقي، بالإضافة إلى تشابك العلامات والمفردات والسرعة الواضحة في كتابتها الأمر الناتج عن صغر حجم مادة الكتابة (كسرات الفخار مثلاً) وعن صغر حجم الموضوعات. ودراسة تطور العلامات الديموطيقية يتطلب مقارنتها بالمراحل الخطية السابقة في محاولة لتفهم فلسفة المصري في التبسيط والمنهج الذي اتبعه في هذا الميدان.

لقد قطعت الدراسات الخطية في مجال خطوط اللغة المصرية القديمة شوطاً طيباً، لكن الأمر لا يزال يتطلب المزيد من الجهد والتحليل للتعرف على الكثير من خصائص رحلة تطور الكتابة في مصر من الهيروغليفية إلى الديموطيقية.